

الملاح والميزات العامة للتاريخ (في العصر المملوكي - المغولي - التركماني)^(١) د. شاكر مصطفى

ملخص

يتناول البحث بالدراسة بعض ملامح علم التاريخ في المشرق العربي خلال العصر المملوكي — المغولي — التركماني، ما بين سقوط بغداد بيد المغول سنة ١٢٥٨م وبين وقوع البلاد العربية بيد العثمانيين سنة ١٥١٧.

إن الفكر التاريخي الإسلامي في هذه الفترة تميز بعدد من الملامح منها:

- ١ — شيوع فكرة الإنسانية العامة ووحدها فيه.
- ٢ — الإيمان بالروح الإسلامية الشاملة، من أن أمة الإسلام واحدة وأنها آخر الأمم وخير الأمم، وأن المؤمنين إخوة.
- ٣ — الموسوعية في الفكر. وقد شاع الفكر الموسوعي في ذلك العصر لأسباب عديدة منها انقسام العالم الإسلامي الشرقي إلى عالين إيراني في الشرق وعربي في الغرب ومنها شعور المسلمين بالخطر على تراثهم الثقافي بعد سقوط بغداد وسيطرة المغول، ومنها الحاجة العملية الحكومية إلى كتب المعلومات العامة، وهكذا ظهرت الموسوعات التاريخية تماماً كما ظهرت موسوعات التراجم والموسوعات الجغرافية والديوانية واللغوية.
- ٤ — التسليم الديني لله في تحليل كل الأمور، فالمؤرخ سلبى أمام الكوارث والانقلابات يسجل ولا يحلل. كان ذلك انعكاساً للوضع الاجتماعي والسياسي المسيطر وقد تجلّى في كثرة سير الأولياء وأصحاب الكرامات.

٥ - التسجيل التفصيلي لأحداث العصر، كأنما كان ذلك محاولة لتجذير الحكام أو نوعاً من الصحافة المبكرة، فالأخبار أحياناً يومية، وشديدة التفصيل لدرجة كتابة تاريخ بضع سنوات في عدة مجلدات، ولدرجة التوافق في التاريخ، أي كتابة أكثر من مؤرخ لتاريخ فترة واحدة، وهكذا غطى المؤرخون تاريخ العصر كله بشكل كامل في مؤلفات يتصل بعضها ببعض ويبدأ بعضها بنهاية الكتاب الذي سبقه، وقد تتبع البحث ذلك سلسلة في المؤلفات.

٦ - غياب موضوع الجدل الديني حول الإمامة والخلافة لأنها أصبحت مشكلة غير مطروحة مع سيطرة الجند الأجانب على الحكم.

٧ - بروز علم الرجال : فقد عوض الناس عن خسارتهم للحكم الفعلي بالبروز في النواحي الثقافية فادام السيف والحكم مغلقاً فقد اتجهت فكرة التخليد الى - القلم (الثقافة والدين) للبروز في المجتمع. وسجل علم الرجال أسماء البارزين.

٨ - تحول المدارس التاريخية التقليدية في المراكز وفي الشأن :
فقد ماتت مدرسة بغداد التاريخية بعد سيطرة المقل على المدينة وانقسم الجو الشيعي قسمين : قسم اتجه شرقاً الى ايران واتخذ اللغة الفارسية، وتشكلت فيه مدارس تاريخية محلية وقسم اتجه غرباً الى دمشق والقاهرة اللتين شكلتا محوراً تاريخياً اخر قامت على جانبيه مدرستان ثانويتان واحدة في مكة والاخرى في بلاد الروم تحت ظل العثمانيين.بالاضافة الى مدرسة اليمن القديمة في تلك البقاع. وماتت المدرسة المسيحية.
وثمة ملامح اخرى تتصل بأسلوب المؤرخين وطرق تعاملهم مع المصادر والمادة ولكن لذلك احاديث اخرى.

ان استمرار مناهج التأليف في العصر المملوكي المغولي على الطرق التي سلفت فيما قبله من العصور دون كبير تجديد يعني أن الفكر التاريخي نفسه ظل بدوره أيضاً على حاله الأول. والتشابه في أشكال التدوين وطرقه كان يخفي وراءه في الواقع تطوراً واضحاً في الفكر التاريخي وفي فهم التاريخ لدى المؤرخين والناس في هذا العصر. وذلك الفكر وهذا الفهم إنما كانا يسيران في الواقع مدى التطور الذي عرفته الجماعة الاسلامية فكراً وسياسياً بعد سبعة قرون من الوجود الفريد. ولقد نستطيع أن نضع

أيدينا على ملامح هذا التطور في عدد من النقاط التي يجب أن نسجل مسبقاً أن بعضها يرتبط ببعض في شبكة نسيج واحدة كما أن بعضها ينحدر أحياناً كثيرة عن بعض :

١ — شيوع فكرة الانسانية العامة ووحدها . كانوا يعبرون عنها « بالبشر » خاصة « وبالامم » احياناً أو كانوا يعددون ذكر هذه الامم ويتابعون أخبارها أو يمدون حبال الحديث بين البداية، بداية الخلق، والنهاية نهاية البشر.

ولكن وحدة الجنس البشري كانت واضحة على الدوام في أذهانهم . لاشك أن جذر الفكرة ديني اسلامي ولكن ملامحها كانت اظهر وأكثر نضجاً في هذا العصر منها في العصور السابقة . لم تكن بالقليلة المؤلفات ، التي كانت من موسعة ومختصرة ، تبدأ التاريخ من آدم لتنتهي بعصر المؤلف متناولة كل الامم في الطريق في جومن التسوية والحياة حتى بالنسبة للتروا والصين والفرنجية .

روح أشبه بالروح العالمية صارت هي الاساس في الفكر التاريخي وكانت ذات بعدين : بعد يضرب في أعماق الزمن الى آدم أبي البشر يربط الناس جميعاً برباط واحد على السواء ، وبعد يتسع في المكان ليشمل أمم الارض المعروفة كلها لا على أساس أنها دار الحرب ، ولكن على أنها الامم الاخرى الموجودة وانها باقى البشر وجزء من مخلوقات الله الانسانية . وبالرغم من أنه لم يجر تعديل جذري او اضافة هامة او تغيير او تحقيق جديد في أخبار الأمم القديمة والسابقة للإسلام الا ان اللهجة حولها اختلفت ولم تعد تتسم بالعداء او بالتعالي بقدر ماتتسم بالاشفاق .

٢ — وتتصل بالفكرة الاولى فكرة اخرى متممة لها هي الايمان المطلق بما يمكن ان نسميه بالروح الاسلامية الشاملة (البان اسلامية Pan-Islamic) .

المؤلفون كانوا يصدرن ، في هذه الناحية ، عن تسليم بعدد من البدييات :

أولها : ان أمة الاسلام واحدة . تعدد الشعوب المسلمة من زنج وترك وعرب وفرنس ومغول وبربر وأرمن وهند وتعدد الدول الاسلامية على اختلاف حكامها وتفاوت الطبقات الاجتماعية بين خاصة وعامة وأشراف وعبيد وممالك واحرار كل ذلك ينتهي

امام القانون القرآني: «وانما امتكم امة واحدة» هذا القانون الذي اخذ اوسع تطبيقات في تلك العصور وصاغ الفكر التاريخي لها .

ثانيها : أن هذه الامة الاسلامية هي آخر الامم . لا أمة كبرى بعدها . وهي تحتوي الجميع الى قيام الساعة .

ثالثها : أنها خير الأمم . «خير أمة اخرجت للناس» وقد فهم المعنى القرآني لا في اطار العقيدة فحسب ولكن في الاطار الاوسع : فكرا وتقاليد واخلاقاً وموقفاً حياتياً ونظماً في الحكم وموقعا من الارض وتأبيدا من الله ...

رابعها : «إنما المؤمنون اخوة» ، والمسلمون سواسية كأسنان المشط ، وفي اطار هذه الاخوة الاسلامية الواسعة كان وصول المملوك القوقازي والتركي الى قمة الحكم او بروز العالم السمرقندي أو الشيرازي في القاهرة او في المغرب وبالعكس بروز الاندلسي والقيرواني في الهند أو خراسان ووصول هذا اوداك الى قمة المقام الديني في القضاء والفتوى أموراً عادية لا يجادل فيها احد .

وهكذا كتب الكثيرون من المؤرخين «تاريخ الاسلام» وكرروا كتابته على انه تاريخ البشرية الاخير . وعلى ان دولة الاسلام هي «الدولة العالمية» والدولة «الوحيدة» الحائزة رضا الله على الارض . عالمية الدولة الاسلامية واوحيديتها وانها الختام كانت كلها معاني قائمة في أسس الفكر التاريخي وفي اذهان المؤرخين .

ومامن شك في أن احياء «الخلافة العباسية» في القاهرة وبقاءها في قلعة القاهرة طول العهد المملوكي كان سببا كما كان في الوقت نفسه نتيجة لهذا المفهوم التاريخي في عالمية الاسلام . كان التمسك بوجود الخليفة يحمل هذا المعنى السياسي – الديني وحده رغم ان «الخلافة» بوصفها مؤسسة حكم كانت قد فرغت تماما من اي معنى سياسي . كان الخليفة رمز الشمولية الاسلامية السياسية وبرهان التأكيد على وجودها واستمراريتها المطلقة .

وبالرغم من ظهور القوى الاوروبية اثر عصر النهضة والاكتشافات ، واعادة توزيع القوى الاسلامية كلها بين المشرق والمغرب في الثلث الاول من القرن السادس عشر ، وزوال الشكل السياسي «للعالمية» الاسلامية بغياب الخلافة سنة ١٥١٧ الا ان

المؤرخين والعلماء ظلوا تحت الحكم العثماني يحتضنون هذه الفكرة و يتصرفون في الفكر التاريخي، من خلال منظورها .

ولعل مما كان يزيد في عمق المشاعر «البان – اسلامية» لدى المؤرخ الاسلامي في هذا العصر شعور بامتداد البلاد الاسلامية جغرافيا في المكان الاوسع والا هم من الارض وبكثرة الامم والنظم الاسلامية بين البشر، في الوقت الذي اخذت تظهر فيه وتقوى بالمقابل شعوب اخرى، غير اسلامية، في اوروبا خاصة، وتناهض العالم الاسلامي في المغرب والحبشة والهند .

٣ – الموسوعية في الفكر : وهي تقابل الشمولية الاسلامية في الجوانب السياسي وتكملها . منظومة القيم العلمية الاسلامية اضحت كلها فلكا واحدا، لكل علم فيه دوره ومكانه وكهانه واصوله .. والمتنفعون به . وارتبطت العلوم بعضها مع بعض لاسيا وقد ضمير الفكر الفلسفي وفشلت علوم الاوائل ، عدا الطب وما يتعلق به في البرهان على الحاجة العلمية اليها فلا ابحاث الجبر او الفيزياء ولا الفلك كانت ذات مردود ، ولا علم الحيل اخترع الجديد ولا الكيمياء وصلت الى حجر الفلاسفة . في الوقت الذي اضحت فيه علوم الدين وما يتعلق بها من علم الرجال ومن التاريخ ، وعلوم اللغة وما يتصل بها من نحو وادب وشعر موارد رزق طيب وجاه عريض .

وهكذا كان من الضروري، مقابل استقرار فكرة العلم «الشاملة» في الازدهان ان تظهر «الموسوعات» في التأليف، والكتب الموسوعية التي يجد فيها الدارس كل ما يحتاج اليه من العلم .

على اننا نستطيع دون شك ان نضيف الى هذا السبب الاول اسبابا ثلاثة اخرى لم يكن دورها باقل شأنًا من دوره :

اولها : ان سقوط بغداد بيد المغول لم يكن سقوطا ماديا بقدر ما كان معنويا . فتلك العاصمة التي كانت لخمس قرون سلفت تربط عن طريق الخلافة الاسلامية : الشرق الاسلامي – الايراني بالحوض الشرقي العربي للبحر المتوسط وبالبحر الاحمر، ثقافة وسياسة ومجتمعا واقتصادا انتهت مهمتها تلك بسقوطها في يد المغول . انقطع الجناح الغربي من ارض الخلافة العباسية عن الجناح الشرقي وبيننا تابع كل جناح طريقه الخاص التحقت بغداد بالشرق لا كمركز وانما كبعض عواصمه .

انتهت كقطب ارتباط . واذا لم يكن بالمهم كثيرا انتهاؤها كقطب سياسي فقد كان أهم من ذلك بكثير انتهاؤها كقطب ومركز لقاء للثقافة الاسلامية وهاجر هذا المركز غربا الى دمشق والقاهرة اللتين تقاسمتا بالتساوي مركز بغداد السابق، كما توزعتا هجرة العلماء الاسلاميين اليها من كل فج كما تبادلتهما بينهما بشكل حركي مستمر. وعرفت العاصمتان خلال القرنين الثامن والتاسع عصرا من النهضة يمكن ان يعتبر بحق عصر النهضة الاسلامية الثانية. انه يشكل في الخط البياني للحضارة العربية الاسلامية، القمة الثانية بعد القمة الاولى التي حققتها تلك الحضارة في القرنين الثالث والرابع، وان تكن الثانية على المحافظة والاتباع بعد ان كانت الاولى على الابداع.

ان تجمع الفكر الاسلامي مرة اخرى في مركز ديناميكي جديد، مع وصول الحضارة العربية الإسلامية مرحلة النضج الاخير، اوجد لدى العلماء فكرة وامكان الاحاطة بالعلوم جميعا وتجميعها بين دفتي كتاب واحد. أو على الأقل جمع أوسع التفاصيل عن علم واحد في كتاب .

ثانها : أن نكسبة بغداد وتنامي الشعور بالخطر على الاسلام وبلاد الاسلام بعد الحروب الصليبية وبعد تكرار هجمات المغول والتتر من الشرق وظهور القوى الاوروبية وصراعها العدواني مع القوى الاسلامية في البحر وعلى الأطراف كل ذلك أوجد لدى حملة الثقافة العربية الاسلامية نوعا من الخوف المصيري على الاسلام وعلى التراث لم يتجلى في التمسك والتشبث به فقط وتناوله بالتكرار والتلخيص ولكنه تجلى كذلك في جمعه في مجموعات شاملة واحدة. القلق الفكري على التراث عبر عن نفسه، بين وسائل التعبير الاخرى، في العملية الايجابية التي تحاول احتضانه كله في موسوعة شاملة، لابغية انقاذه فقط ولكن لتأكيد وتثبيتته أيضا. وسواء اتجهت عملية الاحاطة الى العلوم جميعا أو الى بعضها فقط فالنتيجة واحدة وهي حفظ اوسع ما يمكن حفظه في عمل تأليفي واحد.

ثالثها : الحاجة العملية الحكومية : ان كفاية كتاب الدواوين والموظفين الحكوميين انما كانت تقاس بمقدار إمامهم بمختلف نواحي العلوم والآداب، وبمقدار قدرتهم على الافادة منها في العمل الديواني. «الاحذ من كل شيء بطرف» كان

هدف الطامحين الى دخول الدواوين والتمتع بميزاتهما . وقد تبارى عدد من كبار هؤلاء الموظفين والكتاب في اظهار براعاتهم في اعمال الديوان وامتلاكهم لآلاته وعدته بتأليف الموسوعات المطولة التي تعلم الكتاب والناشئة منهم صناعة الانشاء .

من خلال هذه الاسباب واشتباكات بعضها مع بعض عرف عالم التأليف عددا من الموسوعات ظهرت خاصة في القرن الثامن بشكل يسمح لنا ان نسميه بالقرن الموسوعي . وكانت هذه الموسوعات على اللون وانواع تبعا للحاجات التي كتبت من اجلها أو لأهواء مؤلفيها ونوازعهم :

— فمنها ماأخذ الطابع الأدبي مثل نهاية الارب في فنون الادب في ٣١ مجلدا أكثر من نصفها خصص للتاريخ .

— ومنها التاريخي الخالص : كتاريخ الاسلام للذهبي (٢٨ مجلدا) وكتاب كنز الدرر لابن ابيك وكتاب النشر لعز الدين الكنتاني (في ٤١ مجلدا) واخبار الامم لابن معية (في ١٠٠ مجلد من ٤٠٠ ورقة أنجز منها ٢١ فقط) ونزهة الانام في تاريخ الاسلام لابن دقاق .. وعقد الجمان في تاريخ اهل الزمان للعيني وعيون التواريخ لابن شاكر .

— ومنها موسوعات الرجال كالوفاي للصفدي (٢٨ مجلدا) والمقفي للمقريزي (ومشروعه ٨٠ مجلدا) ..

— ومنها الجغرافي البشري التاريخي مثل مسالك الابصار للعمري (في ٢٠ مجلدا كبيرا)

— ومنها الديواني مثل صبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي . (في ١٤ مجلدا) ...

— ومنها اللغوي مثل لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي .

وقد فاز التاريخ في جميع هذه الموسوعات ، بالنصيب الاوفى . حتى الموسوعات اللغوية حفظت وجمعت بعض امور التاريخ .

٤ — التسليم الديني : لم يكن تدوين الأحداث التاريخية ولا التراجم يجري دون فلسفة فكرية خلفية . وإذا كان طبيعياً أن تكون هذه الفلسفة دينية . فإن طابعها العام إنما اختار من بين القيم الدينية خاصة قيمة التسليم لله .

المنظور التاريخي الواضح لدى جبهة المؤرخين (باستثناء بعضهم مثلاً كالمقرزي أو ابن خلدون) هو منظور الاستسلام لركض الحوادث كيف ركضت . الموقف منها كان سلبياً . ولا نقصد الحياد ولكن نقصد ما هو أكثر منه : الهرب من الادانة ، في جليل الأمور أو حقيرها على السواء . مصرع جبار أو فضيحة عالم أو هزيمة حاكم أو اعدام مجرم كانت كلها تسجل بالكلمات ذاتها : عفا الله عنه أو ابتلاه الله بكذا أو لقي جزاءه من الله ... ويحذف القلم بعد ذلك . عناصر هذه السلبية كانت تخبى غطاءها العقائدي الكامل في :

— الايمان الكامل بالجبرية ، القيمة السائدة في مجتمع ذلك العصر لأنها الفلسفة الوحيدة التي تقيم التوازن النفسي لدى الناس وتسمح بقبول واقع الممالك والمغول والتسلط العسكري .

— رد الحساب الى الله في كل امر فهو الديان . واليه ترجع الامور لانه ليس في ايدي الناس من القوة ما يدفع عنهم غوائل السلطان ...

— اعتبار كل نازلة جزاء وبلاء من الله فان نزلت بمن يستحق فالحكمة فيها واضحة وان نزلت بمن لا يستحقها فالأمرير يده الله

وكان المؤرخون ، في انصرافهم الكامل الى هذه الافكار يحملون قياً دينية اسلامية اخرى ليست اقل منها اتصالاً بالعقيدة ولا ضرورة للمؤرخ الواعي .

كانوا يحملون قيم العمل « وقل اعملوا » والمسئولية « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » والعدل « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وابتاء ذي القربى » ومكافحة الظلم « اذهب الى فرعون انه طغى ... » غابت هذه القيم عن المجتمع الاسلامي يومذاك وغابت بالتالي عن اقلام المؤرخين الذين انصرفوا ، كرجال الدين (وهم في معظمهم منهم) الى توطيد قيم التسليم السلبي ودعمها .

وهكذا سيطرت الغيبية الميتافيزيكية على ميكانيكية التاريخ بدل السببية الواقعية وتراوحت مواقف المؤرخين، في هذه الناحية، بين درجات فكرية ثلاث:

— فبعض توقف عن الاتباع. شلت ملكاته الابداعية بالتقليد. اكتفى بالنقل والجمع ورصف المقتبسات بعضها وراء بعض من مختلف المراجع. وبالرغم من ان التاريخ، بتجدد حوادثه ووقائعه مع كل صباح، كان — مع الشعر — المجال الابداعي الوحيد الباقي للعلماء بعد اغلاق باب الاجتهاد في الفقه وتحديد علم النحو وتسجيل اللغة والحديث والقراءات، وعدم امكان الوصول الى المزيد من تفسير القرآن فان هذا التاريخ المتجدد قد اخذ طرائق النقل والجمع على التقليد القديم. انطبع الجديد بطابع القديم نفسه.

— أخذ قواله فكأنه لولا تبدل الأسماء والحوادث — نسخة اخرى منه.

— وبعض المؤرخين مشى خطوات أخرى مع التقليد السكوني فجعل الانسان لعبة القدر، وجعل هذه اللعبة عبثية، لا معنى فيها ولا مصير ولا غاية. كل مسيرة التاريخ أضحت صوراً وحوادث تركض في فراغ ودون رابط مادي واحياناً دون خيط منطقي عقلاني، تصوروا غاية التقى في اصفاء الغيبية المبهمة على الحوادث سواء كانت فردية في ترجمة بعض الناس او كانت عامة تلعب بمصائر الناس. كما يأتي الطاعون من المجهول ويأتي القحط كذلك يأتي الظلم والظلام وعسكر الحكام، وكما يذهب الرباء والجفاف دون سبب او بالدعوات الصالحات من بعض الصالحين او بكسر زقاق الخمر كذلك يذهب الظالمون بظلمهم كما جاؤوا..

— وبعض المؤرخين مشوا مع الغيبية حتى الايمان «بالاولياء» و«الصالحين» و«رجال الله» ومنحوهم من «الكرامات» والسلطات الميتافيزيكية والقوى الخفية الخارقة، حتى بعد الموت، ما جعل منهم «قدرات» غريبة تستطيع ايقاف الحوادث وخرق قوانين الكون الثابتة وآيين الحياة. لم يعطوهم بالطبع قدرات «الابطال» التي نعرفها في الفكر اليوناني ولكن جعلوهم يتمتعون «بمنح ربانية» خاصة تستطيع بأمر الله واذن منه الامانة والاحياء ودفع الكوارث والتأثير عن بعد في الوقائع كان ذلك نوعاً من إيجاد التوازن — ولو بالشكل الغيبي — مع الواقع الاجتماعي — السياسي المرير.

واذا سجل بعض الكتاب سيرة حياة «الرفاعي» مثلاً او «البدوي» او «الكيلائي» او «الدسوقي» وكراماتهم الخارقة فان ذلك لم يقتصر على امثال هؤلاء ولكن تعداهم الى مختلف الكتب التي تتناول رجال «التصوف» و «اخبار الصالحين والعباد» بل دخلت في العديد من كتب التراجم العادية...

على أن هذا كله لا يعني ان تاريخ العصر لم يعرف ملامح فلسفة اخرى، عقلانية، ترتبط السببية فيها بالناس والارض. يكفي ان نذكر المقرئ مثلاً وابن خلدون. على ان هذا الاتجاه جاء متأخراً جداً، جاء والمدارس التاريخية التي ابدعته ترسل آخر أشعة الغياب.

٥ - التسجيل التفصيلي للعصر كله : تميز الانتاج التاريخي للعصر كله بالخصب الواسع الدرجة التي تطرح السؤال عن معنى تلك الظاهرة والبحث عن تفسير لها : فهل هي نتيجة الشعور بشأن الامة الاسلامية واوليتها « أم هي بؤادر ظهور الفكر الصحفي بشكل مبكر؟ أم هي محاولة تحذير جماعة لا جذورها واضفاء رداء الماضي وجلاله على حاضر من الحكم السياسي ليس بذي جلال؟ أم ان التاريخ بتحدده اليومي كان المجال «الابداعي» الوحيد والميدان الفرد الذي يمكن ان يأتي فيه العالم بمجديد مع توقف الابداع والاتصال في مجالات العلم الاخرى؟.

لقد يكون كل عنصر من هذه العناصر قد ساهم بدوره وعلى طريقته في ظاهرة الخصب التاريخي على اننا قد نستطيع أن نؤكد منها خاصة ماسميناه بعنصر «التحذير» فالواقع أن ابرز سلاطين الممالك والمغول وملوك اليمن على السواء اهتموا اهتماماً خاصاً بالتاريخ وبعضهم الف بنفسه فيه كما شجع المؤرخين أن يؤلفوا له. ولم يكونوا في ذلك وحدهم ولكن جماعات واسعة من ابناء الممالك والمغول والفرس والهند والترك قد اسهموا الاسهام الواسع في هذا المجال.

واذا كان من المفروض مبدئياً الا يهتموا بالتاريخ العربي الاسلامي الواسع لأنه لا يعرفهم فهم لم يسهموا به ولا عرفوا مراحل الاولي ان لم يكونوا حاربوه، بالاضافة الى انه يكشف غربتهم عن اهل البلاد وعدم شرعيتهم في الحكم الا ان الاسلام نفسه فتح لهم الطريق واسعة ليكونوا جزءاً اساسياً منه بسبب من مبدأ «التسوية» و «الاخوة» الاسلامية بين كافة المؤمنين. ومن هنا كان اهتمامهم اشد واقوى بتاريخ الاسلام لا

من اجل البرهنة على حرصهم الشديد عليه فقط وعلى تدينهم الصادق ولكن للاطلاع والاقتداء، والاسوة الحسنة. مجرد اسلامهم كان يسمح لهم ان يكونوا على مستوى واحد في العراقة الاسلامية مع باقي المسلمين القدماء والمحدثين على السواء.

وقد تجلت ظاهرة الخصب التاريخي خاصة في :

أ - التدوين التفصيلي واليومي للأحداث والدخول في الجزئيات وملء الصفحات الطويلة بمختلف الاخبار والوقائع حتى لا يكاد يتسع المجلد الضخم لما يزيد عن احداث سنوات معدودة فالجزء الرابع والاخير من كتاب السلوك للمقر يزي مثلاً يقع في ١٢٣٧ صفحة من القطع الكبير تحوي اخبار ست وثلاثين سنة فقط من تاريخ مصر. والمجلد الباقي من كتاب الاعلام في تاريخ أهل الاسلام لأبي بكر بن قاضي شعبة المتوفي سنة ٨٥١ و يتناول تاريخ مابين سنتي ٧٨١ - ٨٠٨ يقع في ٥٢٤ صفحة (مخطوطة بخط المؤلف في مكتبة اسعد افندي باستامبول رقم ٢٣٤٥) والمجلد الاخير من ابن الفرات (وهو التاسع) لا يتحدث عن اكثر من ١١ سنة (٧٨٩ - ٧٩٩) مع انه في ٤٨٠ صفحة وآخر كتاب مفاكهة الخلان لابن طولون - يحكي حوادث ٤٢ سنة (٨٨٤ - ٩٢٦) في ٥٣٠ صفحة من القطع الكبير والاجزاء الاخيرة من بدائع الزهور لابن اياس تمضي على النحو التالي :

— الجزء الثالث ويشمل اخبار السنوات ٨٧٣ - ٩٠٦ (٣٣ سنة) في ٤٧٧ صفحة .

— الجزء الرابع ويشمل الاخبار من سنة ٩٠٦ الى سنة ٩٢١ (١٧ سنة) في ٤٩١ صفحة .

— الجزء الخامس وفيه الاخبار مابين سنة ٩٢٢ الى سنة ٩٢٨ (سبع سنوات) في ٤٩٤ صفحة .

وهذه الوفرة في التدوين أقنعت بعض المؤرخين بان يكتفوا بمجداث زمانهم فقط تذيلاً على السابقين وهذا ما فعله :

— اليونيني مثلاً في ذيل مرآة الزمان الذي بدأه حيث وقف سبط ابن الجوزي سنة ٦٥٦ وانتهى به حسب النص الذي وصلنا الى سنة ٧١١، اي حوادث نصف قرن

ونيف في مايز يد على ثلاثة آلاف صفحة نشر الثلاثان منها حتى الان .

— البرزالي في (المقتفي) لتاريخ ابي شامة . بدأه بسنة مولده ٦٦٥ التي هي سنة وفاة ابي شامة وانتهى به سنة ٧٣٨ في خمس اوسيع مجلدات . حسب ما يذكرون . القطعة الباقية منه والتي تصل حتى سنة ٧٢٠ مخطوطة في استامبول تقع في ١٢٥٤ صفحة . وتغطي خسا وخسين سنة .

— ابن حجر في انباء الغمر ببناء العمر الذي سجل فيه حوادث الزمان والوفيات من سنة مولده سنة ٧٧٣ حتى سنة ٨٥٠ اي قبل وفاته بعامين .

فهو في الحوادث «يحسن كما قال صاحبه ان يكون ذيل على تاريخ ابن كثير وفي الوفيات على الوفيات التي جمعها تقي الدين بن رافع» ويقع الكتاب في اكثر من ٢٤٠٠ صفحة تغطي أقل قليلا من ثلاثة ارباع القرن .

— السخاوي في التبر المسبوك الذي ذيل فيه على السلوك للمقر يزي . وهو يغطي أخبار ١٢ سنة فقط ، مابين سنة ٨٤٥ وسنة ٨٥٧ ويقع في اكثر من ١٩٠٠ صفحة مخطوطة من القياس الكبير وقد طبع بعضه .

— ابن الحمصي الانصاري في (حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والاقربان) . جعله كالذيل على ابن حجر وبدأه منذ مولده هو سنة ٨٤١ وينتهي به الى سنة ٩٣٠ في اكثر من الف ومائة صفحة ...

ب — التدوين المتواتر : فشة الرغبة في التاريخ وتدوينه قد اوجدت مانستطيع ان نسميه بالتواريخ «المتواترة» أو «المتوازية» أو «توائم» المؤلفات . وهي ان يكتب اكثر من مؤلف واحد تاريخ فترة محدودة ، عاشوها . وهكذا مثلا :

— في الوقت الذي كتب فيه البرزالي تاريخه كان مؤلف آخر معاصر له ، ومن بلده دمشق ، يكتب تاريخ الفترة نفسها هو ابن الجزري . وكتابه :

حوادث الزمان وابناؤه ينتهي بدوره سنة ٧٣٨ .

— وفي الوقت الذي كان ابن حجر يكتب فيه أنباء الغمر كان الجوهري ابن الصيرفي يكتب بدوره إنباء المصير بأبناء العصر مغطيا حوادث مابين سنة ٧٨٤ الى

سنة ٨٤٩ بكتاب يوازي الاول ثم عاد فكتب تاريخ الفترة نفسها في كتاب آخر هو نزهة النفوس والابدان (وقد نشر الكتابين حسن حبشي).

— وفي الوقت الذي كان السخاوي يكتب التبر المسبوك ذيلاً على السلوك كان ابن تغرى بردى يكتب للسلوك نفسه ذيلاً آخر يغطي الفترة نفسها التي غطاها السخاوي مابين سنة ٨٤٥ وسنة ٨٥٧ باسم: حوادث الدهور في مدى الايام والشهور في اكثر من ٨٠٠ صفحة من القياس الكبير. وكان ثمة في اليمن من يكتب تاريخها الاقليمي مابين سنتي ٨٥٤ وسنة ٨٧٠ وهو الداعي عماد الدين ادريس في كتابه روضة الاخبار ونزهة السمار في حوادث اليمن الكبار في الحصون والامصار...

— وكما كتب ابن الحمصي ذيله على ابن حجر كتب في الوقت نفسه ابراهيم بن علي البقاعي ذيلاً آخر بدأه حيث انتهى ابن حجر سنة ٨٥٧ ومضى فيه الى سنة ٨٧٠ بعنوان اظهار العصر لاسرار اهل العصر تحتفظ مكتبة عارف حكمت بالمدينة بنسخة مخطوطة منها بخط المؤلف.

— وبينما كان ابن طولون يكتب حوادث عصره، وكان ابن الحمصي يكتب الحوادث نفسها ايضا، كان مؤرخ ثالث يقوم بالمهمة ذاتها أيضاً: وهكذا قدم لنا ابن اياس المجلدات الاخيرة من كتابه بدائع الزهور التي تغطي تاريخ الفترة الممتدة من سنة ٨٧٢ حتى سنة ٩٢٨.

ج — وأخيراً التدوين التام ونعني تغطية العصر كله بالتواريخ المعاصرة فلا نكاد نجد في القرون المملوكية — المغولية وفي مابعداها بقليل من ثغرة او فترة لم يظهر فيها كاتب يكتبها عن عيان وشهادة. بل قد لا تكون بعض هذه التواريخ شاملة عامة ولقد يظهر في الكثير منها الطابع المحلي، او تبرز صورة الحاكم في الاقليم الذي يكتب به المؤرخ دون غيره ولكننا لانعدم دوماً اشارات واخبار تتعلق بالاقليم الاخرى بل وبالمناطق غير الاسلامية احياناً من اوروبا خاصة وبلاد الحرر او المغل او الحبشة او الهند.

وهكذا كتب ابن الساعي عن التاريخ الى آخر عهده سنة ٦٧٠ في تاريخه الذي زاد على ٣٠ مجلداً وتلاه الكازروني فوصل في تاريخه روضة الأريب (وهو ٢٧ مجلداً) الى قرب وفاته سنة ٦٩٧ ثم ذيل اليونيني على سبط ابن الجوزي فكتب مابين

سنتي ٦٥٤ و ٧١١ ثم وصل كل من البرزالي والجزري الى سنة ٧٣٨ بعد ان كان ابن ايبك قد وقف في كزالدردر عند سنة ٧٣٦ ثم وصل كل من ابي الفداء والذهبي الى سنة ٧٤٨ وسنة ٧٤٩ وكتب اليوسفي سيرة الملك الناصر وعصره من حوالي سنة ٦٨٠ حتى سنة ٧٥٥ في ١٥ مجلدا وانهى ابن شاكر الكتبي كتابه عيون التاريخ وهو ٢٩ مجلدا بآخر سنة ٧٦٠ ثم وصل ابن كثير في البداية والنهاية الى سنة ٧٦٧، وتابع العدولي الحمصي الكتابة حتى سنة ٧٨١ وجاءت بعد ذلك مجموعة من المؤرخين كتبت عصر السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١) كتبه ابن دقاق في نهاية كتابه نزهة الانام كما كتبه التقصادي الدمشقي وابن صصرى الدمشقي وابن كثير (الابن) والجزري (الحفيد)...

ثم جاء ابن قاضي شهبة فكتب العصر الذي عاش، وجعله قرنا كاملا ما بين سنة ٧٤١ وسنة ٨٤٠ في سبع مجلدات كبار (موجود معظمها بخطه في استامبول) ثم وصل المقرئ في السلوك الى سنة ٨٤٥ وتابع العيني في عقد الجمان (وهو في ٢٠ مجلدا) وأرخ كل من ابن حجر والخطيب الجوهري في الوقت نفسه لما بين سنة ٧٨٤ وسنة ٨٤٩ ثم لحقهما السخاوي وابن تغرى بردى بالتاريخ لما بين سنتي ٨٤٥ وسنة ٨٥٧ وانتهى البقاعي الدمشقي الى سنة ٨٧٠ وجاء مجهول مصري فكتب ما بين سنتي ٨٧٣ حتى سنة ٩٠٤ ثم دون ابن اياس في مجلدات بدائع الزهور تاريخ ما بين سنتي ٧٥٨ وسنة ٩٢٨ وتواقت معه في التاريخ في القسم الاخير من هذه الفترة ابن طولون الدمشقي الذي كتب حتى سنة ٩٢٦ في كتابه مفاكهة الخلان. والنعمي الدمشقي ايضا الذي كتب تعاليقه (المخطوطة) منذ سنة ٨٨٥ حتى سنة ٩١٤ وابن الحمصي الذي كتب حوادث الزمان ما بين سنتي ٨٤١ وسنة ٩٠٨ ثم جاء العلاني فكتب ما بين سنتي ٩١٧ - ٩٣٤ ثم جاء ابن زنبيل الرمال فازخ للفترة التالية والحكم العثماني الاول في مصر والشام ثم تابع ابن كامل الشافعي والديار بكري والجنابي التاريخ حتى اواخر القرن العاشر... وهكذا. ولعل المخطط التالي يكشف بوضوح هذه التغطية التاريخية الكاملة المتكاملة.

| ٨٥٠ | ٨٧٥ | ٩٠٠ | ٩٢٥ | ٩٥٠ | | |
|-----|-----|-----|-----|-----|----|------------------------|
| | | | | | ١ | ابن الساعى |
| | | | | | ٢ | الكازرونى (رضة الدريه) |
| | | | | | ٣ | المؤلف المجهول |
| | | | | | ٤ | اليوناني |
| | | | | | ٥ | الحسن الصفدى |
| | | | | | ٦ | ابن القوطى |
| | | | | | ٧ | بيبرس الدوادارى |
| | | | | | ٨ | النوميدى |
| | | | | | ٩ | ابن ايبك |
| | | | | | ١٠ | المبرزالجى |
| | | | | | ١١ | الجزرى |
| | | | | | ١٢ | ابن ابى الفضائل |
| | | | | | ١٣ | احمد المقرئ الفيوى |
| | | | | | ١٤ | بكتاش الفاخري |
| | | | | | ١٥ | الذهبي |
| | | | | | ١٦ | ابو الفداء |
| | | | | | ١٧ | اليوسفى |
| | | | | | ١٨ | ابن شاكر الكتبي |
| | | | | | ١٩ | الصلاح الصفدى |
| | | | | | ٢٠ | ابن كثير |
| | | | | | ٢١ | ابن جليل |
| | | | | | ٢٢ | العدوى الحمصى |
| | | | | | ٢٣ | الجزرى (الغنى) |
| | | | | | ٢٤ | ابن دقماق |
| | | | | | ٢٥ | مجهول (سلطنة برتو) |
| | | | | | ٢٦ | ابن بصري (سلطنة برتو) |
| | | | | | ٢٧ | الدمشقى النقصادى |
| | | | | | ٢٨ | ابن كثير (الدين) |
| | | | | | ٢٩ | الفينجالى |
| | | | | | ٣٠ | ابن قاضى شهنبة (الاب) |
| | | | | | ٣١ | المعتريزى |
| | | | | | ٣٢ | العفيف |
| | | | | | ٣٣ | الصيرفى الجوهري |
| | | | | | ٣٤ | ابن حجر |
| | | | | | ٣٥ | ابن تقي بردى |
| | | | | | ٣٦ | البقاعى |
| | | | | | ٣٧ | مجهول مصرى |
| | | | | | ٣٨ | ابن الحمصى |
| | | | | | ٣٩ | النعماني |
| | | | | | ٤٠ | ابن عباس |
| | | | | | ٤١ | العلاوى |

٨٢٤
٨٢٠
٨٤٠
٨٥٠

٨٤٤
٨٥٧
٨٥٧

٨٥٥ ٨٧٠
٨٥٥

٨٤١ ٩٠٤ ٩٠٨ ٩١٤ ٩٢٨ ٩٣٤ ٩١٧

- ١ - ابن الساعي الى عهده سنة ٦٧٠
- ٢ - الكازروني (روضة الاديب) الى سنة ٦٩٧
- ٣ - المؤلف المجهول ٦٩٠ - ٧٠٩
- ٤ - اليونيني من سنة ٦٥٤ حتى سنة ٧١١
- ٥ - الحسن الصفدي حتى سنة ٧١٤
- ٦ - ابن الفوطي حتى عهده سنة ٧٢٣
- ٧ - بيبس الدواداري حتى سنة ٧٢٤
- ٨ - النويري حتى سنة ٧٣١
- ٩ - ابن ابيك ٦٩٨ - ٧٣٦
- ١٠ - البرزالي من سنة ٦٦٥ حتى سنة ٧٣٨
- ١١ - الجزري من سنة ٦٥٦ حتى سنة ٧٣٨
- ١٢ - ابن ابي الفضائل ٦٥٨ - ٧٤١
- ١٣ - احمد المقرئ الفيومي حتى سنة ٧٤٥
- ١٤ - بكتاش الفاخري من سنة ٧٠٩ الى سنة ٧٤٥
- ١٥ - الذهبي سنة ٧٤٩
- ١٦ - ابو الفداء حتى سنة ٧٤٩
- ١٧ - اليوسفي من سنة ٦٨٣ حتى سنة ٧٥٥
- ١٨ - ابن شاكر الكتبي الى آخر سنة ٧٦٠
- ١٩ - الصلاح الصفدي حتى عهده؟ سنة ٧٦٤
- ٢٠ - ابن كثير الى سنة ٧٦٧
- ٢١ - ابن حبيب من سنة ٦٤٨ حتى سنة ٧٧٨
- ٢٢ - العدولي الحمصي الى سنة ٧٨١

- ٢٣ - الجزري (الحفيد) ذيل على ابن كثير حتى سنة ٧٩٨.
- ٢٤ - ابن دقاق حتى سنة ٨٠١
- ٢٥ - مجهول (سلطنة برقوق) حتى سنة ٨٠١
- ٢٦ - ابن صصري (سلطنة برقوق) حتى سنة ٨٠١
- ٢٧ - الدمشقي التقصادي من سنة ٧٢٩ حتى سنة ٨٠١
- ٢٨ - ابن كثير (الابن) من سنة ٧٥٩ حتى سنة ٨٠٣
- ٢٩ - العينتابي حتى وفاته ٨٣٤
- ٣٠ - ابن قاضي شعبة من سنة ٧٤١ حتى سنة ٨٤٠
- ٣١ - المقر يزي حتى سنة ٨٤٥
- ٣٢ - العيني حتى سنة ٨٥٠
- ٣٣ - الصيرفي الجوهري حتى سنة ٨٥٤
- ٣٤ - ابن حجر من سنة ٧٧٣ حتى سنة ٨٥٧
- ٣٥ - ابن تغرى بردى حتى سنة ٨٥٧
- ٣٦ - البقاعي من سنة ٨٥٥ حتى سنة ٨٧٠
- ٣٧ - مجهول مصري من سنة ٨٥٥ حتى سنة ٩٠٤
- ٣٨ - ابن الحمصي من سنة ٨٤١ حتى سنة ٩٠٨
- ٣٩ - النعيمي من سنة ٨٨٥ حتى سنة ٩١٤
- ٤٠ - ابن اياس من سنة ٧٥٨ حتى سنة ٩٢٨
- ٤١ - العلائي من سنة ٩١٧ حتى سنة ٩٣٤

على انا يجب ان نضيف على اي حال اننا لم ندخل في هذا الاستعراض الكثير من كتب تراجم الحكام ومن كتب التاريخ الصغرى وكلها تصلح صلة وتاريخ فترة.

٦ - غياب مواضيع الجدل الديني فقد تضاءلت كتب الامامة وشروطها ومن يصلح لها والجدل في صاحب الحق فيها كما تضاءلت الكتب الباحثة في الفرق الدينية وتوزيعها وافكارها فهذه وتلك لا يتجاوز في مجموعها في العصر كله عدد اصابع اليد الواحدة.

ولعل السبب في ذلك ان «مشكلة» الخلافة ومن له «الحق» في الحكم انتهت وخاصة بعد سقوط بغداد وحلت محلها مشكلة «من يحكم» بالفعل. لم يعد الحاكم في مصر والشام ولا في العراق وايران لا قرشيا ولا عربيا اصلا ولا حتى خليفة او اماما يحمل جلال الدين ولكنه اضحى من مغامري «الجند» الذين تتكون كتلتهم الكبرى والمسيطرة من «المماليك» آلات الحرب والقتال. فكان العاملون في التاريخ يحتاجون فقط الى معرفة مايجري، في نوع من التسجيل الصحفي، ويهدفون احيانا الى الدعاية للحاكم تبييض صفحته بالعدل والجهاد والتقى فظهرت كتب الدعاية للحكام. كما كان المؤرخون يريدون الى بيان استمرار الفكر الاسلامي، على توجهه وارتباطه بالعبادة الوثقى من الدين وبالمثل العليا السالفة من الثقافة فكان من ذلك الاهتمام بتراجم العلماء والقضاة والصالحين والادباء. اما السؤال عن «شرعية» الحكم السياسي، وتحليل اعمال الرجال واحوال الناس في موضوعية، والجدل الفكري الحي حول مواضيع الخلاف فقد خمد... الذين حاولوا اثاره العواطف في ذلك البحر الهادى من مجتمع الناس لقوا اعنف الخصومة. اولسنا نذكر مثالا مالمقي ابن تيمية وابن عبد السلام وابن دقيق العيد؟

والواقع ان مواضيع الخلاف العقائدي كانت ماتزال موجودة ولكن في شكلها الهادى المطمئن وهكذا حلت محل كتب الامامة والفرق وما يشبهها كتب التعليم السياسي التي تعلم الحكام، وهم في معظمهم غرباء في اصولهم عن بلاد الاسلام، وحديثوا لا اعتناق له كيف يكون الحكم الاسلامي المثالي، كما ظهرت من الطرف السني كتب فضائل الصحابة التي قابلها من الجانب الشيعي كتب فضائل آل البيت، ومؤلفات الجانبين كان هدفها، في الغالب، اثبات الوجود لا طلب الحكم السياسي أو دعمه أو رفضه.

٧ - بروز علم الرجال : كان علم الرجال قد نما وتكون كعلم هام بين علوم الدين قبل العصر المملوكي - المغولي بزمان طويل الا انه في هذا العصر اخذ معنى خاصا يميزه عن معناه في العصور السابقة . كان الاهتمام بالرجال من قبل انما ينصب بصورة خاصة على حملة الحديث ورواته . على انه حين جاءت مطالع العصر المملوكي - المغولي كانت روح التسوية الاسلامية قد اعطت الكثيرين جدا من « الافراد » في المجتمع الاسلامي امكانية البروز دون حرج او مدافعة من احد سواء على الصعيد السياسي او الصعيد الديني - الاجتماعي ... مجالات السياسة والدين والمجتمع والاقتصاد كانت مفتوحة لكل ذي إمكان . وقد بلغ ذلك الانفتاح اقصى درجاته مع وصول الممالك الى الحكم وتحول الخلفاء الى موظفين دينيين تحت جناحهم .

اضحى الفرد في المجتمع الاسلامي هو القيمة ... وبقدر مايملك من القوة ، بالتعاون مع الجماعة التي تماثلها من عسكرية او دينية او اقتصادية ، كان يبرز .

واذا كانت المركزية السياسية المملوكية خاصة تقوم على «أفراد» مغامرین لاجذور لهم ولكنهم من ذوي الكفايات في الحرب او في التأمر فان التركيبة الدينية - الاجتماعية كانت بدورها تقوم على «أفراد» من جمهور الناس ولكنهم انصرفوا ، في نوع من التعويض عن السلطان السياسي الى السلطان الديني وبرزوا فيه .

كان ثمة في الواقع خطان متوازيان - وان يكونا غير متكافئين - من خطوط القوة والسيطرة والبروز : خط السيف الذي يصل بصاحبه الى سيطرة السلطنة وخط العلم الذي يصل بمامله الى قمة النفوذ الديني ، وان تكن هذه القمة دون تلك السدة في تسلسل القيمة والسلطان . واذا كان رجال السياسة يفرضون انفسهم بواقع القوة على الناس و يتصرفون بمصائرهم ، فان اهل العلم (والمؤرخون بعض منهم) كانوا في نوع من الانتقام ومن التعويض النفسي ومن اثبات الوجود يفرضون انفسهم في الميدان الآخر ، ويسجلون وجودهم هذا ، في اصرار وتوسع في ما يدونون . كانوا يقيمون بذلك نوعا من التوازي في الشأن والقيمة وما بين السلطة السياسية والسلطة الدينية . ويستغلون جهل الحكام بالدين وحادثة معرفتهم به ليقاسموهم السلطان والهيبة بين الناس ... وليقاسموهم احيانا المنافع ورفاه العيش . ومن هنا فان كثافة الاهتمام بعلم الرجال كان اثباتا لأقطاب الجماهير المحكومة في وجه الفئات الحاكمة ، وتأكيذا

لقيمة حملة الدين في الاحتجاج الصامت على بروز الحاكم السياسي على الناس . بل صار العلماء طبقات ووظائف كرجال الحكم وصار لبعضهم كالصوفية نظام محدد ومراتب متدرجة على رأسها خليفة وسلطان وله المقدمون والنقباء ... ولقد كان المؤرخون في جهمتهم من علماء الدين ومن كبار الموظفين . والاقلام التي تكتب انما هي بأيدي هؤلاء . ولعل هذا يفسر تلك الكثرة الواسعة في اعداد العاملين على التاريخ منهم حتى لنستطيع ان نعد ما بين القرنين الثامن والتاسع ، من التاريخ الاسلامي فترة العصر الذهبي للتاريخ ، لقد كانا قرني التاريخ بامتياز . لم يتفق ان اجتمع في عصر واحد من قبل مثل تلك الجماعة من امثال : ابن الفوطي والبرزالي والجزري والذهبي والصفدي وابن شاكر الكتبي والصفدي وابن كثير وابن ابيك والحزرجي والنويري والعمرى ثم الجوهري والكناني والسخاوي وابن الفرات والسيوطي ... ولعل تمسك العلماء بالتاريخ وتاريخ الرجال بالذات انما كان الجواب الممكن الوحيد على افتقاد المجتمع الاسلامي في تلك العصور لسلطاته السياسية . (٢)

٨ — تحول المدارس التاريخية التقليدية في المراكز وفي الشأن :

فقد نجم عن اتجاه بغداد نحو الشرق بعد سقوطها بيد المغول ان مراكز النشاط التاريخي قد هربت منها تدريجيا نحو الغرب . وبالرغم من انها احتفظت لنفسها بمركز الريادة التقليدي مدة تزيد على نصف قرن بعد سقوطها واطلعت بين من اطلعت من المؤرخين الكبار ابن الساعي ثم الكازروني ثم ابن الفوطي ثم ابن معية الحلبي الا انها لم تستطع الاحتفاظ بمركزها الاسر الجذاب اكثر من ذلك بكثير وغادرها العلماء كما غادرتها الانوار في اتجاهين :

أ — فبعضها اتجه غربا مع حملة الثقافة الى دمشق حيث تقاربت المدرستان الاقليميتان القديمتان في هذين الاقليمين حتى درجة التوحد عن طريق تبادل العلماء والمؤرخين دون انقطاع ، والتبعية لنظام سياسي واحد . وما اصاب القاهرة من الازدهار الفكري كعاصمة للماليك اصاب دمشق باعتبارها العاصمة الثانية في الاقليم المملوكي الثاني بل اصاب عددا من المدن الشامية الاخرى مثل حماة وحلب .

ب — وبعض الانوار اتجه شرقا الى ايران حيث كانت اللغة الفارسية قد توطدت بعد قرنين من الحكم السلجوقي والخورزمي فلما جاء المغول لم يستطيعوا إلا تبني هذه اللغة .

وبعد ان كانت لغة السياسة والبيت فقد اوضحت لغة الثقافة والعلم . وبالرغم من ان اللغة العربية بقيت لها حرمتها كلغة للقرآن والدين وبقي العلماء على تعلمها واحيانا على التأليف بها في امور الدين خاصة الا انهم انصرفوا في الادب والتاريخ الى الكتابة بالفارسية .

وهكذا بينا تمزقت وذابت مدرسة بغداد التقليدية التي كانت عماد مدارس التاريخ الاسلامي قام تنظيم جديد في هذا العصر يمكن ان نيز فيه بصورة اساسية مجموعتين من المدارس :

الاولى : فارسية لأن الكثرة الكاثرة من انتاجها انما كتب بلغة الفرس ، ومع ان بعض هذا الانتاج كتب بالعربية وخاصة في العراق الا ان مركز الثقل في التدوين التاريخي لحق بالاسر الحاكمة وانتقل معها الى اطراف الهضبة الايرانية حيث نشأت حول البلاطات خاصة عدة مدارس محلية منفصل بعضها عن بعض ومتنافس بعضها مع بعض فمدرسة في طبرستان واخرى في كرمان وثالثة في هراة ورابعة في سمرقند وخامسة في دلهي بالهند ولكنها جميعا تكتب بالفارسية وحدها ...

واغترب بذلك التاريخ الاسلامي في هذه البقاع ، وراء حجاب اللغة اعتبارا من هذه القرون وانقطع تاريخ البلاد الاسلامية الممتدة في غرب العراق والذي استمر بالطبع يكتب بالعربية .

الثانية : عربية . تابعت المسيرة في اطار الثقافة العربية الاسلامية التقليدية وكان محور القاهرة — دمشق هو العمود الفقري فيها وان كانت تمتد في الرقعة الجغرافية ما بين جبال اليمن واراض الروم والصحراء الغربية في مصر .

غير اننا نستطيع ان نلاحظ ، قبل الايغال في دراسة خيرات هذه المجموعة ورجالها وانتاجها ، بالملاحظات الآتية :

(١) ماتت بالتدريج المدرسة المسيحية . لا يكاد يمضي قرن على مطلع العصر المملوكي حتى ينتهي آخر مؤرخ مسيحي فلا يظهر من بعده مؤرخ آخر حتى مطلع العصر الحديث مع الدويهي اواخر القرن السابع عشر.

(٢) تابعت المدرسة اليمنية تفردا الذي سبق ان تميزت به وعرفت خلال هذه القرون عهدا من الازدهار لم تعرفه من قبل ولا من بعد .

(٣) نشأت على جناحي المدرسة المصرية الشامية من الجانبين مدرستان متصلتان بها ، وقد تكونت واحدة منها على الاقل على حسابها :

المدرسة الأولى في الحجاز: وهي مدرسة نمت بسبب المكانة الدينية الخاصة للحرمين الشريفين . واذا عنيت خاصة بتاريخها فقد اخذت عناصرها العلمية في كثير من الاحيان من رجال المدارس الاخرى الذين هاجروا للمجاورة في الحجاز عند الحرمين .

المدرسة الثانية : الرومية في الاناضول : ولم تكن بذات وجود ولا رجال معروفين في القرنين السابع والثامن ، ونعني في ظل سلاجقة الروم الذين كانوا قد اقاموا دولتهم هناك منذ اواخر القرن الخامس . وكان عملهم الشقافي الاساسي توطيد الاسلام واللغة التركية في تلك المنطقة . فلما برز العثمانيون هناك في القرن التاسع على حساب السلاجقة واخذوا مكانهم ثم انساح العثمانيون في البلاد العربية منذ مطلع القرن العاشر (السادس عشر الميلادي) وانتقل مركز الثقل الاسلامي من القاهرة الى استامبول برزت المدرسة الرومية من حول سلاطين بني عثمان . ولهذا كثيرا ما كتبت باللغة التركية مرضاة لهم ، داخله من التاريخ الاسلامي في غربة لغوية أخرى ...

وتبقى بعد هذا الملامح الاسلوبية واللغوية لتاريخ العصر، وتبقى طرق استخدام المصادر والمراجع وطرق التأليف وتنظيم المادة، ولكن هذه كما لتلك أحداث أخرى طويلة طويلة ... وما أتينا إذ أتينا إلا على بعض الملامح، وإلا على الخطوط الأولى، فيها، لعل الاقلام تتجه بالدراسة والتقوم إلى هذا العلم، علم التاريخ الاسلامي،

الذي أكل عيون الألو ف من المؤرخين المسلمين قرونا بعد قرون ... ولم يكتب به كتاب
بعد يوفيه بعض حقه على الناس .

الهوامش

- (١) لا يدخل في هذا البحث بالطبع التاريخ في المغرب والاندلس .
- (٢) اهلنا عامدين هنا ذكر الجماعة الثالثة من القوى في المجتمع الاسلامي المملوكي وهي جماعة التجار ومالكي المال والارض (وكان من بينها الجماعات المسيحية واليهودية) ذلك انها انصرفت الى الاستغلال الاقتصادي فلم يكن لها من هم لا في عمليات السياسة والحكم ولا في الذكر بالتاريخ .